الادب المصري في القرن التاسع عشر

نعني بالادب المصري الكتابة البليغة والشعر البليغ اللذين ظهرت فيهما نفوس الكتاب بصفتهم مصريين او اثر الحياة المصرية وروح المجتمع المصري . ونبدأ فنقول :

تختلف آداب الامم باختلاف امزجتها وعاداتها واخلاقها وحياتها الاجتماعية . اذ ليست الآداب او الكتابة الفنية من شعر ونثر بليغ الاَّ صورة النفوس والاجتماع او اثر اخيلة الكتاب والشعراء . وليست نفوس الامم متشابهة ولا كل الاجتماعات متماثلة ، وعلى هذا اختلفت ادراكات الكتاب واخيلتهم ، ومن اجل هذا ايضاً اختلفت قرائح نتائجهم في فنون الكتابة وموضوعاتها ، وطرق التفكير وما ينشأ عنها من الاختلاف في الصناعة الادبية ، وتأليف الكلام وما ينشأ عنهُ من المذاهب الكتابية في تاريخ الآداب

ولقد ظهر شيء من هذا في الادب العربي حيث تختلف البيئات والمجتمعات . ولكن ادباء العرب ولاسيما المتأخرون منهم انما ذكروا احوالاً خاصة ومسائل في شعرهم ونثرهم تتعلق ببعض الافراد واخيلة الشعراء انفسهم كالمدح والذم والوصف وصور ما يجول ببعض النفوس من حكم وعشق وغير ذلك . وان جاء شيء يتصل بالاجتماع او بالحياة العامة الانسانية فانما يتسرب في المسائل الخاصة تسرباً . وسبب ذلك ان المتأخرين من الادباء — وهم ليسوا من العرب الخلص — ظنوا ان من الواجب محاكاة الآداب العربية في كل شيء جاء عن العرب : في الموضوعات والاخبار والاسلوب ، وان الخروج عن ذلك خروج على الادب العربي ، وعابوا على من سلك غير هذا الطريق حتى قالوا ان اسلوب المتنبي وابي العلاء ليس من اساليب الشعر العربي لانهم نظموا الحكم والفلسفة في شعرهم . فكان الكتاب والشعراء في كل عصر من عصور اللغة يرجعون الى الاساليب القديمة ويقلد بعضهم بعضاً في ذلك . فلم يكن لاحدهم مذهب خاص او طريقة معروفة غير ما اشتهر عن بعض كبار الشعراء في نسج الشعر وصناعته كالبحتري وابي تمام وغيرهما . وقد قصر الادباء والنقاد كلامهم على شرح هذه الطرق التي ينوها في الشعر والنثر . وحصروا الاختلاف بين الادباء ومذاهبهم في تلك الصناعة اللفظية . وغاب عنهم ان يبحثوا او يدونوا الموضوعات الادبية الاجتماعية الدائمة بين عامة الناس ، سواء اكانت تلك في احاديثهم اليومية ، مما يمثل بعض احوالهم وطباعهم ، ام في اغانيهم العامية

الشائعة مما يمثل عواطفهم واحساساتهم وافكارهم . ولعلهم رأوا ان هذا ادب عامي ملحون فلم يعنوا بجمعه ، على ان ابن خلدون ذكر شيئاً من هذا في مقدمته . ولا بد ان تكون هذه الآداب العامية نالت من نفوس الشعوب العربية وأثرت تأثيراً عظيماً في الآداب العربية بل ربما ظهرت في الآداب العامية صور صحيحة للامم اكثر مما يظهر في تلك الآداب المتكلفة

ولقد حدث في مصر مثل ما حدث في غيرها من البلدان التي يتكلم اهلها بالعربية فكان فيها ادبان . ادب عربي صحيح وادب مصري اكثره ملحون . ولقد قيض الله لهذا البلد بعض الادباء الذين ساعدوا على نشر هذا الادب المصري بالتعبير عن آراء العامة وتصوير الاجتماع المصري في ازجال شعرية او احاديث ثرية ، فنقلوا لنا تلك النفوس وما كانت عليه في هذا الكلام الذي صنعوه ووضعوه في قالب فني لا يقل بهجة ولا جمالاً عن ذلك الشعر العربي البليغ . هذه الازجال العامية وهذه الاحاديث التي تمثل لهجة السواد الاعظم من المصريين ونوع آخر من الشعر الفصيح لكبار الشعراء المصريين هو ما نسميه (بالادب المصري) وهو الذي سنتكلم عليه الآن وننشر نماذج منه . ولكن قبل ان نصف ذلك الادب المصري يلزمنا ان نقول كلمة عن العصر الذي نشأ فيه وعن اخلاق المصريين في جملتها لانه مرآة لهذين العاملين . ونقتصر في هذا على القرن التاسع عشر

اما الحالة الاجتماعية منذ استولى المغفور له (محمد علي) على مصر الى اواخر القرن التاسع عشر الميلادي فكانت متأثرة باحوال سياسية بعضها كان عائقاً بالنفوس من عصر المماليك ذلك العصر الاستبدادي الذي ولد في الشعب المصري الخضوع للحاكم خوفاً من بطشه ، وانتهاكه عليه وعلى اعوانه في السر لا في العلانية ، والاستسلام الى القضاء ، والاستهانة باهوال الحياة وتحمل الظلم على انه قضاء من الله ، والتسلي عن الآلام بالتهكم والسخرية من الحياة والناس واحوالهم ، والرضا بما ينالهُ الانسان في عيشه حتى اصبحت هذه الصفات كأنها عامة في المصريين وكانت اكثر ظهوراً في سكان القاهرة الذين كانوا متصلين بالحكام او على كثب من اعمالهم . وبعض احوال المصريين الاجتماعية نشأت من تبسط الحكام في الحياة والمساعدة على اباحة السرور للناس بالتمتع ونشر اعلام السرور والافاضة على العامة بالاموال من جراء ذلك ، باقامة الاحتفالات والافراح كما كانت الحال في عصر (الخديوي اسماعيل) فقد اختص بعض الادباء والشعراء والمغنين

كالشيخ علي الليثي وعبده الحمولي وغيرهما حتى سرى في البلد روح فني ادبي ، وعلى اثر ذلك السرور انتشر في النفوس الميل الى التهكم (والتنكيت) والنقد اللاذع والفكاهة العذبة

فوافق ذلك اخلاق المصري في جملتها وهي كما قلنا الاستسلام الى القضاء وتحمل اعباء الحياة بكل خضوع وارتياح ، والنظر الى الدنيا نظر الفيلسوف او المتوكل على الله ومقابلة المصائب مقابلة الصبور المستهزئ بها . والمصري بطبعه صبور يكفيه في يومه مايسد رمقه و يشتغل اشق الاعمال غير متألم ولا جزع . فاذا ناء بالاثقال قال « الحمد لله على الصحة والعافية » ومع ذلك فهو ممتلىء نشوة وسروراً خفيف الروح يميل الى (التنكيت والتبكيت) فكه المجلس يمزج الهزل بالجد في حديثه . حلو المعاشرة كثير الضحك بعيد احياناً عن النظر في المسائل الجدية كثير التسامح لين الجانب . حتى لقد يقابل كلمة السوء تصيبه من عدو يريد ان ينكل به ، او صديق خبيث يريد ان يهزأ به بتهتهة و(بنكتة بلدية) او بفكاهة ظريفة . ولقد يكتفي بالتهكم والسخرية لاظهار ألمه ، و يبتلع الكلمة المرة التي يغص بها غيره وتحدث في نفسه غثياناً . وربما حمله الحياء احياناً على ان يبقى على غيره وان اساء ، لانه صفوح عن الأساءات

ليس من اصحاب الاثرة : به كثير من السذاجة الفطرية التي قد تتغلب على قوة عقله وحضور ذهنه ولباقة لسانه ، طيب القلب ، كريم النفس ، ضعيف الارادة ، ومن هنا تجده كثير التسامح . وجملة القول ان اعظم ما يوصف به عقل المصري هي ملكة النقد والتهكم ، وخفة الروح ، وحسن الفكاهة ، وحدة الذكاء ، وحضور الذهن

كل هذا وغيره كثير ظهر في الادب المصري الحديث . فان الحوادث السياسية والاجتماعية في تلك الايام حركت نفوس الادباء من كتاب وشعراء الى نقد الاجتماع والنظر في الحياة المصرية ووصفها . نشأ عن ذلك الادب المصري الحديث الذي ظهرت فيه هذه الاخلاق التي رسمناها امام القارىء . وكانت هذه الآداب بلهجة قريبة من لهجة العامة لتمثيل عقولهم وافكارهم وما كان يجري بينهم من الاحاديث والآراء

واكثر ذلك فيما في نوع من الشعر المعروف بالزجل وانتشر هذا منذ منتصف القرن التاسع عشر الى آخره على لسان الشيخ حسن الآلاتي وعبد الله نديم والشيخ محمد النجار وغيرهم

بل ظهر نوع من الادب الحديث الذي لم يكن معروفاً في الآداب العربية قبل هذا العصر على انه اقرب شيء الى تصوير الحياة الاجتماعية تصويراً صحيحاً وهو تلك القصص

التمثيلية المصرية بلهجة قريبة جداً من لهجة العامة واول من ابتكر هذا النوع عبد الله نديم بروايتيه (الوطن والعرب) وغيره ممن سنتكلم عنهم . وظهرت اناشيد مصرية وطنية كما في قصائد المرحوم الشيخ رفاعه الطهطاوي وقصص اخرى منظومة او منثورة للمرحوم محمد عثمان جلال وغيرهم

وعلى الجملة لادباء القرن التاسع عشر في مصر الفخر في ان يرسموا الاخلاق المصرية في آدابهم وان يزيدوا في الآداب العربية آداباً مصرية حديثة

وليس الادب المصري كلهُ من الشعر او النثر العامي بل تأثر الشعر الفصيح والنثر البليغ ايضاً بالاجتماع المصري والحياة المصرية . فكان من اصدق صور الاجتماع واحوال الناس في بلدنا كما في مقطوعات للبارودي ، ولاسماعيل باشا صبري في اغانيهِ التي وضعها شيء من ذلك . وكان للحوادث الاخيرة التي حدثت في مصر منذ اوائل القرن الرابع عشر الهجري اي سنة ١٨٩٠ ميلادية اثر عظيم في نفوس شعرائنا المعاصرين لنا ، حتى ظهر كثير من هذه الحوادث او التلميح اليها في شعرهم . واظهرهم في هذا الشاعران الشهيران احمد بك شوقي حامل لواء شعرائنا الآن ، ومحمد حافظ ابراهيم بك صاحب القصائد المعروفة في احوال مصر الاخيرة وسياسة البلاد والحوادث الوطنية . على انهُ قد سبقهما بشيء من هذا النوع المرحوم رفاعه بك الطهطاوي في اناشيده كما اشرنا الى ذلك . فشعر هؤلاء حادث من الحوادث ذات الاثر الشهير في الادب العربي ، ولاسيما في الشعر العربي ، لان هذا ما يسمى بحق (تطوراً) وانتقالاً من نظام القصائد المعروف الذي كان متبعاً في الشعر العربي وفي جميع البلاد التي يتكلم اهلها بلغة العرب. ولا شك في ان منشأ هذا الانتقال انتشار ما يسمونهُ بالروح الوطنية ومحاكاة الامم الاوربية في ذلك بالاطلاع على ما كتبوا ونشروا من شعرهم وآدابهم . ولا يسعنا المقام الآن لتفصيل هذا الكلام ولكننا نقول مجملين القول اجمالاً ان هذه الروح التي انتشرت في مصر اخيراً عند شعرائنا روح جديدة في الشعر العربي لابد ان تسير بالادب الى نوع مصري يمثل الروح المصرية والحياة المصرية

وحدث في النثر مثل ذلك او اكثر مما ينشر من الروايات والقصص الاجتماعية والتمثيلية ولكن من اسف لم نعن بجمعها وتدوينها والاطلاع عليها مثل ما عنينا بالشعر وذلك لعدم شهرة كتابها ولان كثيراً منها مكتوب بصيغة لا يعتمد عليها قراء العربية الصحيحة . غير ان شيئاً من ذلك لا يدعونا الآن الى الحط من قدرها وعدم العناية بها .

على انها في رأينا من اصدق صور حياتنا المصرية . نضرب لذلك مثلاً بما يمثل الآن من القصص الهزلية في تلك المسارح المعروفة وان كانت محتوية على كثير من نقص سفف الاخلاق واهمال للحياء ! !

ولا يفوتنا ان نذكر في مقدمة هذا الاسلوب القصصي الحديث الذي يمثل حياتنا المصرية في بعض العصور أثر الكاتبين الكبيرين (ابرهيم بك المويلحي وولده محمد بك المويلحي) فيما نشراهُ اولاً في المقطم بعنوان « ما هنالك » ثم جمع وطبع على حدة وما نشراهُ بعد ذلك في جريدتهما « مصباح الشرق » وجمع في كتاب « حديث عيسى بن هشام » وهما اول ما ظهر من هذا النوع في الايام الاخيرة في مصر

ولا يمكننا الآن سرد ما ظهر من القصص والروايات المصرية في بعض المجلات والصحف اليومية وفي كثير مما يطبع في وريقات مجموعة فنكتفي بهذا ولنا ان شاء الله عودة الى ذلك

احمد ضيف

ثروة الولايات المتحدة الاميركية

في ربع قرن

من الامور المعروفة ان الولايات المتحدة الاميركية ، حكومة وشعباً ، اغنى بلدان الارض قاطبة . وغناها لا ينحصر في طبقة خاصة من الناس بل هو موزع على جميع الطبقات وهذا مما يجعل ارتقاءها ارتقاء صحيحاً ثابتاً . فقد جاء في تقرير لرئيس اتحاد الصناعات الانكليزية ووكيلهِ انهما كانا سائرين في وشنطن قرنا امام جراج فرأيا نحو خمسين اتوموبيل فورد او ما يماثلهُ من الاتومبيلات الصغيرة واقفة امامهُ ولما سألا عن اصحابها قيل لهما انهم سوّاقو اتوموبيلات الاجرة التي تخص شركة الجراج . فانهم يجيئون في اتومبيلاتهم الخاصة الى عملهم صباحاً ويرجعون فيها الى بيوتهم مساء . ومن الادلة التي قدماها على رخاء المعيشة في اميركا ان مقدار الاموال المودعة في بنوك التوفير زادت اربعة اضعاف منذ نهاية الحرب . وقد اطلعنا الآن على مقالة بالعنوان المتقدم للسنر اوليري رئيس غرفة التجارة الاميركية فاقتطفنا منها ما يلي

لا يذكر التاريخ ارتقاء مادياً يضاهي ارتقاء الولايات المتحدة الاميركي في ربع القرن